مقامات الزمخشري - دراسة موضوعية – فنية

الدكتور كمال عبد الفتاح حسن

مدرس – كلية التربية – سامراء

المقدمة

حفل العصر العباسي باهتمام الدارسين والنقاد ــ كونه العصر الذهبي للأمة ــ إذ كان زاخرًا بالفنون ولاسيما الشعر والنثر ، وقد لاقت الفنون الاهتمام الواسع من النقاد ومؤرخي الأدب ، ومن هذه الفنون (فن المقامة) ، فقد نالت المقامة حظوة لدى الدارسين وأكثروا الكلام عليها ، ولما تزل (المقامة) من الفنون النثرية التي أشبعها الدارسون والباحثون بحثًا ، إلا أنهم لم يقولوا فيها كلمة الفصل أو رأيهم الأخير ، ولاسيما موضوع : هل إن المقامة قصة أم لا ؟ مع إن بعضهم قد تلمس هذا الموضوع ولكن لم يجزم به .

وعلى الرغم من مرور أكثر من ألف عام على ابتكار بديع الزمان الهمذاني (ت٣٩٨ هـ) إياها ، وكون ظهورها في القرن الرابع للهجرة ، وما لاقته من اهتمام كبير بمبتكرها ونشأتها ثم كتابها ، فقد اقترن اسم بديع الزمان الهمذاني بهذا الفن ، لكونه أول من ألف فيها وكتب وأخذت المعنى الاصطلاحي منه ، لذلك تكون كلمة (المقامة) قد نسبت إليه في طرزها ورسومها وتلاه الحريري (أبو محمد القاسم بن علي الحريري (ت ٥١٦ هـ)) الذي نسج على منواله ، وألف مقاماته المشهورة بنمط تجاوز فيه أستاذه (البديع) في التصنيع اللفظي والسبك والموضوعية ، وانه إذ قاسمه الشهرة في هذا الميدان عند المتأخرين، لكن قصب السبق يبقى مقترناً بالرائد الأول الذي فتح مسالكه ووقع على أبكار صحائف ميلاده.

ويحلق فوق هذين العلمين على مد التاريخ عدد واسع من المتأخرين الذين ألفوا مقامات في موضوعات مختلفة ، ومن هؤلاء الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) الذي ستكون مقاماته محور هذا البحث ،في محاولة للكشف عن بعض جوانبها الفنية والموضوعية .

قسمت البحث على قسمين :

الأول : عرض لمقامات الزمخشري .

والثاني : الصنعة والشعر في مقامات الزمخشري . لنستبطن هذه المقامات ومدى تأثرها وتأثيرها في عصرها ومدى اختلافها عن مقامات مبتكرها بديع الزمان ومن بعده.

المقامة:

المقامة لغةً : المجلس ، ومقامات الناس مجالسهم[١] ، ويقول ابن منظور :((المُقامة، بالــضم : (الإقامة) يقال : (أقام الرجل إقامة ومقامة) كــ : المَقام والمُقام ، بالفتح والضم ، وقد يكونان للموضوع ، لأنك إذا جعلته من (قام يقوم) فمفتوح ، وان جعلته من (أقام يقيم) فمضموم ، فإن الفعل إذا جاوز الثلاثة فان الموضع مضموم الميم ، لأنه مشتبه ببنات الأربع نحو (دحرج) ، و(هذا مدحرجًا) ، وقوله تعالى : ﴿ لامُقَامَلَكُمْ ﴾[٢] ، أي : لا موضع لكم ، وقرئ بالضم أي : لا إقامة ، وقوله : ﴿ حَسُنَتْمُسْتَقَرًّاوَمُقَامًا ﴾[٣] ، أي : موضعا))[٤] .

وقد تطور هذه المدلول اللغوي ، فانطلقت الكلمة لتشمل معنى مجازيًّا أوسع من معناها اللغوي ، فتأخذ اصطلاحًا جديدًا فظهر معنى المقامة الفنية على أنها ((قصة قصيرة بطلها نموذج إنساني مكد ومتسول لها راو وبطل وتقوم على حدث ظريف مغزاه مفارقة أدبية أو مسألة دينية أو مغامرة مضحكة تحتمل في داخلها لونًا من ألوان النقد أو الثورة أو السخرية ، وضعت في إطار من الصنعة اللفظية والبلاغية ، أو هي حكاية أدبية قصيرة يدور اغلبها حول الكدية والاحتيال لجلب الرزق ، وتشمل على نكتة أدبية تستهوي الحاضرين))[٥] .

إلا أن عدداً من كتب في المقامات ابتعد عن هذا المفهوم لفن المقامة ، ومنهم الزمخشري ، والحقيقة التي نثبتها هنا أن المقامة لايشترط فيها أن تكون قصصًا وان تدور حول الكدية ، بل أن لــكل كاتب موضوعه وميوله ، لا بل أن لكل مقامة موضوعاً منفصلاً ، فقد نأى الزمخشري بفنه عمَّا كتبه من سبقه في موضوعات جديدة ، كان هدفها الوعظ والإرشاد والنصيحة ، ومن كل ما تقدم نخلص إلى أن ((المقامة في إطارها اللغوي ــ تمثلت في حديث يلقى على جماعة من الناس إما بغرض النصح والإرشاد ، وإما بغرض الثقافة العامة ، أو التسول ، ومع كل فإنها تلتزم شكلاً فنيًا محددًا وكل ما يميزها هو أنها حديث ذو نزعة وعظية أو ثقافية يلقى على جماعة من الناس))[٦] .

لعل هذا الرأي يقرب لنا مقامات الزمخشري ويجعلها من هذا النوع ، لا من النوع القصصي الذي يعتمد على موضوع الكدية وما شابه من مقامات الهمذاني والحريري .

فالمقامة، إذًا حكاية قصيرة يسوقها الكاتب مقرونة ببعض النكت الأدبية واللغوية وتأخذ عدة جوانب في معالجتها لأمور حياتية معينة ، وتساق بأسلوب لغوي عالٍ ، وقد تتحكم الصنعة في سبكها[٧] .

من هو الزمخشري؟

هو أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري ، الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان ، كان من أئمة عصره من غير مدافع ، وتشد إليه الرحال للإفادة من علومه وفنونه ، اخذ النحو ومختلف العلوم من شيوخ عصره ، وخلف لنا عدة تصانيف مهمة كانت لها الأثر البارز في تاريخ الأمة ، منها (الكشاف) في تفسير القرآن الكريم ، وله في اللغة (أساس البلاغة) ، وفي علوم الحديث له كتاب (الفائق) ، ومن تآليفه في النحو كتاب (المفصل) و (القسطاس) في علم العروض ، ومن كتبه الفقهية (رؤوس المسائل) و (المنهاج) في الأصول ، وغيرها من التصانيف الكثيرة[٨] .

وكان معتزليًا ومتظاهرًا به حتى نقل عنه إنه كان إذا قصد صاحبًا له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن : قل له : أبو القاسم المعتزلي بالباب . مما يدل على تمسكه بالاعتزال واعتزازه به، وتعاطى الشعر فورد عنه انه رثى شيخه أبا نصر بن منصور ، فضلاً عن مجموعة من الأبيات الشعرية الأخرى في عدة موضوعات[٩] . وذكر في مقدمة المقامات انه قال : ((ولا واصل بخدمة السلطان أذياله ، وان يربأ بنفسه ولسانه عن قرض الشعر فيهم))[١٠] . مما ينبئ عن كونه قرض الشعر في مدح ولاة الأمر .

ولادته كانت يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة بزمخشر ، وتوفي ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة بجرجان خوارزم بعد رجوعه من مكة[١١] .

المبحث الأول

عرض للمقامات وموضوعاتها

ذكر الزمخشري في مقدمة مقاماته السبب الذي دعاه إلى إنشائها وتأليفها ، وهو رؤيا أتته في بعض إغفاءات الفجر ((كأنما صوت به من يقول له : يا أبا القاسم اجل مكتوب ، وأمل مكذوب ، فهب من إغفاءاته تلك مشخوصًا به مما هاله من ذلك وروعه ، ونفر طائره وفزعه ، وضم إلى هذه الكلمات ما ارتفعت به مقامة وآنستها بأخوات قلائل))[١٢]. والأخوات القلائل هي خمسون مقامة ، إذ انه لم يكتب ولم ينشأ إلا خمسين مقامة تامة العدد مختلفة العنوانات والأسماء .

واللافت للنظر في هذه المقامات أنها لم تعتمد أسلوب المقامات السابقة ــ كمقامات الهمذاني والحريري ــ في إيجاد راوية وبطل في المقامات ، لان موضوعات مقاماته ليست قصصية ، وإنما وعظية ، الهدف منها الإرشاد والنصح ، وفي كل مقامة يخاطب نفسه بهذا الوعظ ، وكأنه أراد أن يجعل من نفسه المبتدأ بالوعظ بكنية (أبا القاسم) عدا مقامة التسليم التي بدأها بـــ (جديد يبلى ....) وبين هذا الهدف في مقدمته إذ قال : ((يعظ فيها نفسه وينهاها أن تركن إلى ديدنها الأول))[١٣] .

فخطاب النصح والوعظ والإرشاد يوجهه لنفسه ليكون عبرة لغيره ، وهذا احد الأساليب النصحية التي يستعملها الوعاظ في إبداء نصائحهم إلى الآخرين كي تجد قبولاً ورضا في نفوسهم ، ولو تفحصنا عنوانات مقاماته لوجدناها كلها تدل على موضوعة الوعظ ، وهذه العنوانات هي : (مقامة المراشد ، التقوى ، الرضوان ، الارعواء ، الزاد ، الزهد ، الإنابة ، الحذر ، الاعتبار ، التسليم ، الصمت ، الطاعة ، المنذرة ، الاستقامة ، الطيب ، القناعة ، التوقي ، الظلف ، العزلة ، العفة ، الندم ، الولاية ، الصلاح ، الإخلاص ، العمل ، التوحيد ، العبادة ، التصبر ، الخشية ، اجتناب الظلمة ، التهجد ، الدعاء ، التصدق ، الشكر ، الأسوة ، النصح ، المراقبة ، الموت ، الفرقان ، النهي عن الهوى ، التماسك ، الشهامة ، الخمول ، العزم ، الصدق ، النحو ، العروض ، القوافي ، الديوان ، أيام العرب) .

وأطول هذه المقامات هي مقامة أيام العرب ، وقد توحي أسماء المقامات الخمس الأخيرة بأشياء بعيدة عن الوعظ وهي (مقامة النحو ، والعروض ، والقوافي ، والديوان ، وأيام العرب) ولكنها ، على الرغم من كل شيء ــ في الوعظ كذلك ، إذ وظف الزمخشري ببراعة الكاتب الحاذق والمتمكن من فنه مصطلحات تلك العلوم في وعظ نفسه وقد أفاد من أحداث أيام العرب وشخوصها واستخلص منها الموعظة والاعتبار ، وبراعته في المقامات الأخيرة إنما تتأتى من كونه عالمًا متمكنًا من علمه ومن هذه العلوم ، ولاسيما إنه قد ألف كتبًا في بعضها مثل (المفصل) و(المفرد) و(المفرد والمؤتلف) و(ديوان الشعر) و(ديوان الرسائل) وغيرها من التصانيف[١٤] .

وتتكشف مقدرة الزمخشري وبراعته في المزاوجة بين الأمور العلمية بالأدبية وتوظيف العلوم في الأدب ، وذلك بتأطيرها بإطار أدبي يخرج به الموضوع العلمي ويجعله موضوعًا آخر يفيد الوعظ مما يدل على تمكنه من أدواته وفنه .

وبتفحص للمقامات الخمسين ، نجد أنها تبدأ بـــ (أبا القاسم) وتكاد تكون الافتتاحيات كلها متشابهة لذلك سأُورد أنموذجًا واحدًا منها ليكون من أول مقامة المراشد : ((يا أبا

القاسم إن خصال الخير كتفاح لبنان . كيف ما قلبتها دعتك إلى نفسها ، وان خصال السوء كحسك السعدان أنى وجهتها نهتك عن مسّها ، فعليك بالخير إن أردت الرفول في مطارف العز الاقعس ، اقبل على نفسك فسمها النظر في العواقب ، وبصرها عاقبة الحذر المراقب وناغها بالتذكرة الهادية إلى المراشد))[١٥] .

وهذا الأنموذج يوضح لنا ما كانت عليه مقامات الزمخشري وأنها تخلو من الراوية والبطل ، وأنها وعظية لا قصصية ، تعتمد على الصنعة اللفظية والبلاغية والسبك الجيد واختيار الجمل الرصينة ، فالخطاب موجه نحو المتحدث (أبا القاسم) وهذا احد الأساليب الوعظية التي أراد منها الزمخشري أن يوصل خطابه إلى الآخرين مبتدئاَ بنفسه ، كي لا يجعل من حرج على الآخرين في تقبل النصائح .

تختلف عوامل البناء العام للمقامة عن التي سبقت كتابتها ، لكونها قد خلت من الحدث والمكان والراوي والبطل وأسلوب السرد التي انمازت بها المقامات التي سبقت الزمخشري .

أما مقامات الزمخشري التي وردت بأسماء بعض العلوم فسأُورد مقتطعات منها ــ من ذلك ــ مقامة النحو (يا أبا القاسم أعجزت أن تكون مثل همزة الاستفهام ، إذ أخذت على ضعفها صدر الكلام ، ليتك أشبهتها متقدمًا في الخبر مع المتقدمين ، ولم تشبه في تأخرك حرف التأنيث والتنوين)[١٦] . وكتب في مقامة العروض يقول : ((يا أبا القاسم لن تبلغ أسباب الهدى بمعرفة الأسباب والأوتاد ، أو يبلغ أسباب السماوات فرعون ذو الأوتاد ، ان الهدى في عروض سوى علم العروض ، في العلم والعمل بالسنن والفروض))[١٧] . ومقامة القوافي (يا أبا القاسم شأنك بقافية رأسك وعقدها وبدعوة السحر تحللها بيدها ، ان كنت ممن ينفعه استغفاره ، أو يسمع منه نداؤه وجؤاره ، واستغن بكلمات الله التامة عن التكلم في حدود القافية)[١٨] ، اما مقامة الديوان فجاء فيها (يا أبا القاسم خلع من رقبتك ربقة المطامع ، واقتحامك عقبة المطالع ، إلا في طلع هذه الريقة من الرقبة هي العقبة وأصعب من العقبة عقبة لا يقتحمها الا قوي ضابط ، وإلا من أمده الله بجأش رابط أبيت أن يبقى لاسمك في الجريدة السوداء إثبات)[١٩] .

وقد جانب الدكتور عبد الرحمن ياغي الحقيقة في حكمه المتسرع حين حكم على مقامات الزمخشري من دون النظر المتفحص في مضمونها ، وإنما غرّه العنوان فجعل المقامات التي تحمل أسماء عددٍ من العلوم انها تتناول العلوم فقط[٢٠] ، وهذا ليس من أساسيات البحث العلمي ، وحين نعرض هذه المقامات والموضوعات التي تناولها الزمخشري في كتاباته ومدى مطابقة العنوان للمضمون وكيفية البناء الفني الذي تولاه في بنائها ، ومدى تمكنه من

الأدوات الفنية التي اعتمدها في صياغته لتلك المقامات ،يتبين أنه قد أخذ جانبًا آخر يختلف عن غيره من مقاماته من ناحيتي الشكل والمضمون .

المبحث الثاني

البناء الفني للمقامات (الصنعة والشعر)

عرفنا ان هذه المقامات ما هي إلا مناجاة الزمخشري لنفسه يوعظها وينهيها أن تركن إلى ديدنها الأول وان تفكر فيه إلا عن سبيل الندم والتحسر على ما تقدم ، ويأمرها أن تلج في الاستقامة على الطريقة المثلى ، أي انه قصر مقاماته على الزهد والوعظ ومحاسبة النفس ، وهذا هو التفسير الواضح للهدف المتوخى من تأليف المقامات عنده .

وبالنظر إلى طريقة المعالجة التي اعتمدها في مقاماته ، نلحظ ــ ما اشرنا إليه سابقًا ــ من أن الزمخشري لم ينسج مقاماته على غرار من سبقه من كتّاب المقامة ، فهو لم ينشئها على منوال المقامات التي كتبها بديع الزمان الهمذاني والحريري ، وذلك لاختلاف الموضوع الذي تناوله والمباينة الواضحة في الموضوعات التي عالجتها مقامات الزمخشري من وعظ وإرشاد ، وهذا جزء مهم في الأسلوب والمعالجة ، لان الصنف الأول من المقامات كان أنجع أسلوب لها هو الأسلوب القصصي لبيان أهداف كتابها ومراميهم ، ونلحظ ان الراوية عند الهمذاني هو عيسى بن هشام والبطل هو أبو الفتح الاسكندري وعند الحريري الراوية هو الحرث بن همام ، والبــطل هو أبو زيد ، وان كان الحريري قد خص بعض مقاماته في الوعظ ، إلا أنه سائر على منهج واحد في وجود السرد القصصي والراوية والبطل على خلاف الزمخشري الذي لم يحدد نفسه براوية وبطل وإنما كانت المناجاة مع نفسه .

ومواعظ الزمخشري في مقاماته أتت بصورة مباشرة بطريقة تقريرية ، وهذا يبعدها عن الفنية المطلوبة من الإبداع الأدبي ، وان كانت طريقة الزهاد والوعاظ منهم الشعراء ــ أيضًا ــ يسلكون الطريق نفسها في خطابهم ، لان الموضوع في نظرهم يحتاج إلى مباشرة وتقريرية ، كون المخاطب هم عامة الناس وليسوا من النخبة ، يرتبط الوعظ والزهد بالفقراء من الناس ، إلا أن ذلك لا يمنع أن يرتقي الأديب بأسلوبه في خطابه الشعري والنثري إلى درجات الإبداع الفني ، وفي أدبنا العربي من تجاوز هذا الأمر وسما بأدبه وفنه مع تناوله لهذه الموضوعات[٢١] . ومما نلحظه في الأمثلة التي أوردناها أن التقريرية والمباشرة واضحة عند الزمخشري مع خلو المقامات من البناء الدرامي الذي اعتمده من سبقه في كتابة المقامات الوعظية.

وقد استعمل الزمخشري في بناء مقاماته الزخرفة اللفظية والصنعة البلاغية والتكلف ، وركن إلى السجع ذي المقاطع القصيرة واختياره للألفاظ وانتقاءه لغريب الكلمات ، وهذا الأسلوب قد شاع في القرن الرابع والخامس للهجرة عند معظم الكتاب ، ومال العصر إلى الصنعة في فني الشعر والنثر[٢٢] ، ونلحظ ذلك جلياً في جميع مقاماته وعلى سبيل المثال مقامة التقوى التي احتوت على الفنون البلاغية وجاء بها (يا أبا القاسم أجل مكتوب ، وأمل مكذوب ، وعمل خيره يقطر ، وشره يسيل ، وما أكثر خطأه وصوابه قليل . أنت بين أمرين لذة ساعة بعدها قرع السن والسقوط في اليد . وشقة ساعة يتلوها الرضوان وغبطة الأبد فما عذرك في أن ترقل كل هذه الأرقال . إلى الشقاء وطول الحرمان وأن تغذّ كل هذه الأغذاذ إلى النار وغضب الرحمن . وابن علتك في أن تشرد شراد الظليم . عن رضوان الله ودار النعيم ... إلخ)[٢٣] .

فقد احتوت على افانين البلاغة من سجع في كل جملها وطباق في أجل ، أمل ، خيروشرّ ، خطأ وصواب وكناية في قرع السن وسقوط اليد وجناس بأنواعه ــ مكتوب ومكذوب وهو جناس مضارع ، وترقل وإرقال وتغذّ واغذاذ ــ تشرد وشراد من الجناس الإشتقاقي وغيرها من أفانين البلاغة .

ومن مكملات العناية التي اختطها الزمخشري في مقاماته ، بعد ان أضفى عليها المحسنات والصنعة وتلك النزعة البلاغية التي أصبحت سمة غالبة على كتاب المقامات وفنها، فلا بد أن يسير على هدى من قبله في إحكام صنعته ، ليحفظ للمقامة جلالها وجمالها ، ولأن العصر طبع بسمة الصنعة ووسم الأديب بالصناعة اللغوية والبلاغية ، إذ (التجأ كثير من الأدباء إلى تعقيد التعبير فنوناً من التعقيد ، ولعل ما يصور ذلك ما يروى عن مهارة بديع الزمان وانه كان يستطيع أن يكتب كتابًا يقرأ فيه جوابه ، أو كتابًا يقرأ من آخره إلى أوله)[٢٤].

وقد استعمل الزمخشري كل تلك الأدوات فضلاً عما قام به من كان قبله من ممازجة النثر بالشعر ، فقد ختم هذه المقامات بأبيات من الشعر ، وهذا الأمر سنَّهُ الهمذاني والحريري، ولم يجانب طريقهما الزمخشري ، فقد كان شعره في مقاماته يتسم بالصنعة والتكلف ، ولا يكاد يختلف عن شعراء عصره في هذا الجانب ، وان كانت الأبيات التي قالها قليلة إلا أنه يعد شاعرًا أيضًا ، والمقامات التي مازجها بالشعر هي : (مقامة الزهد ، والتسليم، والصمت ، والمنذرة ، والطيب ، والعزلة ، والمراقبة ، والنهي عن الهوى ، والتماسك ، والخمول) وفيها امتزجت بالشعر ، واخترنا مقامة لتكون أنموذجًا هي مقامة النهي عن الهوى (يا أبا القاسم إن الذي خلقك فسواك ، ركب فيك عقلك وهواك ، وهما في سبيل الخير والشر دليلاً كـــ ...

هَوَاكَ أعْمَى فَلاَ تَجْعَلْهُ مُتبعًا لا يَعْتَسِفُ بِكَ عَن بَيْضَاء مَسْلُوكه[٢٥] .

فملاءمة معنى الشعر للموضوع الرئيس للمقامة ومناسبة النص تدل على ان الموضوع قد كتب شعرًا ونثراً ، وبين ذلك في مقامة الخمول فأن الزمخشري قد عمد إلى الشعر في هذه المقامة وبدأ شعره فيها بقوله :

أطلب أبا القاسم الخــمول ودع غيرك يطلب اسامياً وكنى

شبه ببعض الأموات شخصك لا تبرزه إن كنت عاقلاً فطناً

ادفنه في البيت قبل ميتتـــــــه واجعل له من خموله كفنا [٢٦]

فهوقد أعاد معنى مقامته النثرية بهذه الأبيات وصاغها بأبيات شعرية لذلك سلب الخاصية الشعرية وأصبح اقرب إلى الشعر التعليمي منه إلى الغنائي ، فضلاً عن تجسيم المواقف والآراء وكتابتها نثرًا وشعرًا للغرض نفسه ، وأصبحت هذه الحاجة ملحة عند عدد من الكتَّاب في أن يختم كتاباته ببعض الأبيات ، ليبرز مقدرته في النثر والنظم ، وان طفقت شهرة بعض الكتَّاب كشعراء ، إلا أنهم لم يجاروا الشعراء في تمكنهم من فنهم وعلو كعبهم في هذا الفن ، لان الطابع العام للكتَّاب وما يتسمون به من عيوب فنية تنسحب على أشعارهم ، فضلاً عما جبلوا عليه من موهبة في فن من دون آخر .

ومن السمات التي انمازت بها المقامات عمومًا ، هي موضوعة الظرف والفكاهة ، فمقامات بديع الزمان والحريري تحمل صفة أو سمة الظرف والفكاهة في تناول موضوعات الكدية والتسول والاحتيال ، لما شاع في هذا العصر من هذه المظاهر ، وقد عزاها بعضهم إلى أسباب اقتصادية وسياسية[٢٧] إذ إنها تطرح مثل هذه الموضوعات بأسلوب هزلي فيه ظرف وفكاهة ، ولاسيما ما يفعله أبو الفتح الاسكندري في مقامات بديع الزمان ، وما يفعله أبو زيد عند الحريري ، أما مقامات الزمخشري فقد غلب عليها طابع الجد وابتعدت عن أسلوب الهزل ، والسبب يعود إلى شخصية الرجل أولاً ورزانة الموضوع الذي تناوله وهو الوعظ ثانيًا ، إلا أنها قد تنم عن شيء من الظرف المقبول في المقامات الخمس الأخيرة (النحو....) فإنها تحمل شيئًا من ظرف العلماء في اختيار العنوان وتوظيف العلوم ومعانيها ودلالاتها لخدمة غرض النصح والإرشاد ، الذي أراده من مقاماته الخمسين (وعدد هذه المقامات يذكرنا بإلزام المقاميين به أنفسهم في إنشاء مقاماتهم ، فالهمذاني كتب إحدى وخمسين مقامة ، والحريري خمسين مقامة[٢٨]، وفي مقامة النحو يتضح ظرف العلماء في اختيار مفردات للوعظ من صلب علم النحو مثل : همزة الاستفهام ، تاء التأنيث ، التنوين[٢٩] . ومن هنا يتبين لنا أن الزمخشري لم يبق من التقاليد الفنية للمقامة الا على هذا الأسلوب الأنيق

والوعظ الذي يظهر فيه بعض مقامات الهمذاني والحريري واسقط كل ما عدا ذلك ، فليست في مقاماته شخصيات ولا أحداث ولا قصة ولا حكاية ولا سرد ولا حوار(٣٠).

الخاتمة

مما تقدم نلمح أن مقامات الزمخشري اقتصرت على الوعظ والنصح الديني الداعي لإصلاح النفس والزهد في الحياة ، والتوجه نحو عمل الخير ، مما أدى إلى أن لا تلتزم المقامة عنده بالديباجة المقامية المعروفة ، بان يكون لها راو مثل : (عيسى بن هشام في مقامات بديع الزمان والحرث بن همام عند الحريري) بل اقتصر فيها على توجيه النصائح لنفسه بطريقة مباشرة مخاطبًا نفسه بكنية (يا أبا القاسم) في مقاماته كلها ما عدا مقامة التسليم ، ولم تكن هذه المقامات ذات نزعة قصصية كمقامات من سبقه إذ إنها كانت تستعمل الراوي والبطل والسرد القصصي والحوار ، لكنها لم تخرج عن مقامات من سبقه في السمة الفنية والبناء العام ، فقد التزمت بالصنعة البلاغية ولاسيما السجع ذو المقاطع القصيرة والعناية بالألفاظ ، كذلك التزامها الشعر ، إذ إن هذه المقامات امتزج فيها النثر والشعر في بعضها وليس جميعها ، والشعر في بعضه كان يلائم الموضوع العام الذي تناوله في المقامة ، إلا أن هذا الشعر كان تقريريًّا وتعليميًّا ويخلو من جمالية الشعر ، وقد لجأ إلى الظرف في عدد من مقاماته ، وهو ظرف مقبول ولاسيما في مقاماته الخمس الأخيرة التي حملت عنوانات بعض العلوم ، وهي علوم برع فيها الزمخشري وألف فيها الكتب العلمية .

هوامش البحث وقائمة المصادر والمراجع

(١) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٥٥ م ج ٩ / ص ٣٥ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ١٣ .

(٣) سورة الفرقان ، الآية ٧٦ .

(٤) لسان العرب ج ٩ / ص ٣٦ .

(٥) فن المقامات بين المشرق والمغرب ، د . يوسف نور عوض ، ط ١ ، طبع ونشر دار القلم ــ بيروت ، ١٩٧٩ م .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٨ .

(٧) ينظر : تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، أنيس المقدسي ، ط ١ ، طبع ونشر دار العلم للملايين ــ بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ٣٦٢ ، وينظر : معجم المصطلحات الأدبية في اللغة والأدب ، مجدي وهبة ، وكامل المهندس ، طبع لبنان ، ١٩٧٩ م ، ص ٣٧٩ .

(٨) ينظر : وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، تحقيق : إحسان عباس ، دار الثقافة ــ بيروت ، ١٩٧١ م ، ج ٥ / ص ١٦٨ ، والأعلام ، خير الدين الزركلي ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٤٢ م ، ج ٧ / ص ٥٤ .

(٩) المصدر نفسه ج ٥ / ص ١٧٢ .

(١٠)مقامات الزمخشري ، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، ط ٢ ، ١٩٨٧ ، طبع ونشر دار الكتب العلمية ــ بيروت ، ص ١١ .

(١١) ينظر : وفيات الأعيان ج ٥ / ص ١٧٣ .

(١٢) مقامات الزمخشري ، ص ١٠ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ١٤ .

(١٤) ينظر : وفيات الأعيان ج ٥ / ص ١٦٩ .

(١٥) مقامات الزمخشري ، ص ١٦ وما بعدها .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ٢١٨ .

(١٧) المصدر نفسه ، ص ٢٢٤ .

(١٨) المصدر نفسه ، ص ٢٣٨ .

(١٩) المصدر نفسه ، ص ٢٤٦ . والجريدة السوداء : دفتر في ديوان الجيش فيه مبالغ أرزاقهم وسائر أحوالهم .

(٢٠) ينظر : رأي في المقامات ، د . عبد الرحمن ياغي ، ط ١ ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ــ بيروت ، ١٩٦٩ م ، ص ٣٠ .

(٢١) ينظر على سبيل المثال : زهديات أبي نواس .

(٢٢) ينظر النثر الفني في القرن الرابع الهجري – زكي مبارك ، دار الجبل – بيروت ١٩٧٥– ج١/١٢٧

(٢٣) مقامات الزمخشري ،ص ٢٣ .

(٢٤) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د.شوقي ضيف ، ط٧ ، منحقة دار المعارف – مصر ، ص ٢٨٠.

(٢٥) مقامات الزمخشري ، ص١٩٨.

(٢٦) مقامات الزمخشري ،ص ٢١٠ .

(٢٧) ينظر : أهل الكدية أبطال المقامات في الأدب العربي ، عبد النافع طليمات ، دار الوليد ، ١٩٥٧م ، ص ٤٠ .

(٢٨) البناء الفني للمقامات العربية في العصر العباسي ، د. عباس الصالحي ، الموسوعة الصغيرة ،ط١ ، بغداد ، ٢٠٠١م ، دار السؤون الثقافية العامة ، وزارة الثقافة – العراق ، ص ١٠٠.

(٢٩) مقامات الزمخشري ،ص ٢٣١.

(٣٠) فنون النثر في الأدب العباسي ،د.محمود عبد الرحمن صالح ، ط ١ ، الناشر وزارة الثقافة – عمان ، الأردن ، ١٩٩٤ م ، ص ١٧٦ .